الفلسفة والخطابات المحايثة

الفصل الثالث
الفلسفة والخطابات المحايثة

١ - الخطاب الفلسفي وتعددية المعارف :

كيف يمكن للتفكير أن يزيل الضباب الذى يحيط به من كل جانب..؟! كيف يمكنه أن يضئ عتمة الدروب والمسالك المعرفية، التى لا تتعدد وتتسع إلا لتزداد غموضاً وكثافة؟!.

إننا لا نكاد نحصل على شيء إلا ليكون هو ذاته مقدمة للبحث عن أشياء أخرى عن عوالم تقبع فى مكان ما فى ذات هذا العالم التى قد لا تكون أكثر من ذاتية الإنسان. أجل فنحن نجهد أنفسنا فى البحث بين جنبات المعارف المتراصة أمام وعينا المعاصر، ويأتينا دوماً اليقين المظلل أننا على وشك الحصول على حقيقة ما.. على مبدأ قادر على اختزال كثافة المعارف وزئبقيتها. ويبقى اليقين حلماً يقظا وتتحول اليقظة إلى نوم مضطرب . لتستمر حالة الترقب فى انتظار توفر حقائق أكثر يقينية قد تلوح هناك فى الأفق فى يوم ما.. فى زمن ما.. فى محيط تضاريس تقرب لنا جغرافية الكون وتجعلنا كائنات تؤمن بإمكانية متجددة لعلها تجيب عن أسئلة لم نتوصل بعد إلى تمثلها.

فى زمن التقنية والمعلوماتية لا تجد المعارف والعلوم سبيلا للحصول على «يقينيتها» إلا بارتكازها على شكل من أشكال الاستعمال والأداتية. فى أفق يجعل من الذات فعلاً يتيه فى اللحظة ويستسلم لأكثر أنواع الانغماس استغراقاً وشمولية. بينما تبقى معارف الفكر المتأمل تبحث عن صيغ جديدة لاحتواء ذلك الانغماس واستيعابه وترقب ما يمكن أن يحدث دون أن يكون قابلاً للإحاطة والفهم. انه الخوف الدائم والمتزايد من أن تتحول المعرفة فى أكثر حدودها كثافة وانتفاخاً إلى نوع من «اللامعرفة»، فكيف نفكر إذن فى ما لم نفكر فيه لنستبق زمنا لن تكون فيه فسحة لمتعة الفكر والسؤال. زمن يجعل من أشكال «الراهن» و«الآنى» أدوات لخدمة تحولات غير منقطعة لم يسبق لنا أن فكرنا فيها حتى يكون لنا حلم اختيارها؟!

نعم يبدو أننا لم نتوقف قط عن الترقب والانتظار، انتظار يزداد حدة وإلحاحاً فى تنقيبه اللامحدود عن فكر قد يبزغ ذات صباح، فكر لم نفكر فيه«**فاللامفكر ليس بالضرورة كما ذكر هيدغر معاكساً للفكر والتفكير، بل هو الشىء الذى لم نفكر به بعد، والذى لم نلتق به بعد، بل لا يزال على مستوى الانتظار والترقب والصدفة والمغامرة**»(١).

فهل يمكن أن نعتبر مجموع المعارف المرتبطة بالفلسفة والمعارف المرتبطة بالفلسفة والعلوم الإنسانية بمثابة بحث وتأمل فى «ممكنات» الفكر أى فى أشياء ما زلنا نبحث عن التفكير فيها، بعد أن نكون قد حددنا أماكن تواجدها بين ثنايا الصدفة والمغامرة والغربة وعبر طرقات الشكل واللايقين؟!.

"الفكر المركب" بحسب التعبير المستخدم من طرف ادغار موارانMORIN ، لايمكنه إلا أن يزداد تركيبا وتعقيداً ليؤلف بين أكثر فروع المعرفة تعدادا وتناقضا، حتى يكون بالإمكان "ترصد" حركات الفكر والتواءات المعارف من خلال قدرة الذات المتزايدة على وعى التحولات قبل أن تنقضى أى قبل أن يصبح التفكير فيها وحولها مجرد تسجيل انطباعى لكرنولوچيا عوالم انسحبت خلف تشكيلات من الفكر الكامن ظلت تخفيه حجب الوعى المعاصر.

إن المناهج التى ظلت المعارف تمتدح تفردها توشك الآن أن تتحول هى نفسها إلى نماذج وقوالب ميتة تخنق إمكانات تقدم المعرفة وتجعل الأفكار مجرد تكرار على نغم واحد. ولم يعد تكامل المعرفة مجرد شعار يتوجّب رفعه فى كل لحظة وزمان لإعلان حسن النوايا وتأكيداً لرغبة مؤجلة فى الاستفادة من منجزات الاختصاصات المتعددة فى نموها وغناها بالنسبة للفكر الإنسانى. فقد يكون الباحث فى هذا العصر "العولمى" و"النجومى" فناناً وفيلسوفاً ولما لا حتى عالما..!!، إن «**الفلاسفة – الفنانين مضادين للخطاطات** Schémas **الخطية [المرتبطة] بالإنتاج وإعادة الإنتاج، يريدون أن يبقوا فلاسفة للتعدد ، وعليهم إذن وبداية القيام بإقصاء. وهو الوحيد: إقصاء الضرورة فى شكلها المعاصر لهم**»(٢).

---

(١) محمود جمول: مجلة العرب والفكر العالمى – مقال: العقل الغربى فى الميزان – العددان السابع عشر والثامن عشر – شتاء/ ربيع ١٩٩٢ – ص١١٩.

(٢) Jean Noël Vuarnet : Le Philosophe Artiste [INEDIT] union Générale d'éditions, 1977 Imprimé en ltalie. P. 16.

فالمفكر أو الفيلسوف الذى يعى بشكل أكبر رهانات معارف عصره هو الأكثر قدرة على أن يحدّد خانات وجود ممكنات المفكر أو ذلك الذى يمكن أن نعتبره من قبيل "اللامفكر" الذى ينتظر منا أن نزيح عنه الستار ونفكر فيه بعد أن نكون قد تخلصنا من النماذج التى أنجزناها وأصبحت لها قدرة توجيه فكرنا نحو خيارات منغلقة، فتاريخ **«الخطاب المهمين ليس تاريخاً شعرياً بشكل كبير. انه تاريخ عائلى، كنسى أو أديرى. هنا يفرز النموذج نسخاً (.) تتطور فى [شكل] أنساق (٠) قابلة لأن تتكرر أى لأن تصبح نماذج. فالنموذج يضمن ويسمح بالنسخ [الجيدة] - والنموذج الضامن يشكل العائلة الفلسفية كعائلة [متميزة] بالفحولة** Virile **: ورغم عزوبية الرهبان، "فخطاب الآباء" ينتقل (.) من الأب إلى الابن، فأن تكون أبا لخطابك يعنى أن تكون لك القدرة على حيازة خطاب الأب، خطاب ابن قابل هو نفسه لأن يصبح أبا. وبذلك، يصبح الابن الجيد أبا جيدا - فى إطار احترام شرعية وحيدة»**[١].

وإذا كان الباحث عن المعرفة فى القديم يحاول أن ينطلق من اختصاص معرفى معين ليصل إلى تشكيل رؤية لها علاقة مباشرة بالفلسفة كنظرة كلية، فإن على دارس الفلسفة أو المهتم بالإبداع فيها فى الوقت الراهن، أن يعود من أجل تشكيل رؤيته الفلسفية وعمقه النظرى إلى أكثر الحقول المعرفية تخصصاً من أجل أن يعيد بلورة فرضياته الفلسفية . حتى لا تبقى المعرفة الفلسفية تعيش حالة الإعاقة والبطئ فى التكيف، منتظرة نهاية مشوار علوم لا تنتهى وباحثة عن بداية جديدة تعجز حتى الآن عن الإمساك بها بعد مرور أكثر من قرن على انقضاء عصر الأنساق الكبرى.

فليس إذن، أمامنا إلا أن نؤكد مع جان دوفينيو J. Duvignond أن هناك: **«نوعاً ما من القلق يكمن خلف هذه المعرفة التى يوفرها الإنسان بنفسه عن ذاته. لقد دخل الإنسان عالماً - عالمه - حوّله هو بواسطة تقنياته وصناعته. لكن هذا العالم يصبح فى كل مرة - بالنسبة له- عالماً مجهولاً أكثر ولا يمكن التنبؤ به»**[٢]. فوعى الإنسان بنفسه دائم التحول ينساب كشلال لا يتوقف أو كنهر يشبه نهر هيرقليطس الذى قال

---

(١) Ibid. P.10-11.

(٢) تساؤلات الفكر المعاصر : مجموعة من المفكرين - ترجمة : محمد سبيلا - دار الأمان - الرباط - ط١ - سنة ١٩٨٧ - ص ٣٠.

قديماً: «أنك لا تستطيع أن تخطو مرتين فى نهر بعينه، لأن ماء جديداً سيظل دفاقاً عليك (...) إننا نخطو ولا نخطو فى نهر بعينه، نحن موجودون وغير موجودين»[1]. وتلك السرعة الهائلة فى التحول تدفع البعض إلى القول: « "اننا ندخل التاريخ بعد أن يكون قد انصرم" . وملاحظة ذلك أمر بسيط. يبدو أن سير علوم الإنسان خلال القرن الأخير فى أوروبا كان يعنى القيام بالبحث عن القوانين بالنسبة لكائن حتى تفلت منه تجربته باستمرار. انه تطور "كارثى" إلى حد ما إذا ما فكرنا فى الصورة المطمئنة والهادئة التى ننسبها إلى "تقدم المعرفة"»[2].

والمعارف هى فى حاجة لأن «تتكتل» لتكشف عن حقول جديدة«للفكر الممكن»، ولكى تستجلى وتوضح حقولا لا تزال مغلفة بضباب مفاهيمى يصعب حتى الآن أن نجعله ينجلى وفق النماذج الراهنة. فهناك فروع كالفلسفة والسيميوطيقا واللسانيات والبلاغة والأسلوبية والسمنطيقا وغيرها من التخصصات الناشئة يفترض أن تكون لها قدرة الاندماج بنفس الدرجة التى استطاعت فيها أن تتعدد إلى عتبة التشظى، لأن التكامل لا يعنى بتاتاً غياباً للتعدد وسعياً ميتافيزيقيا لتحقيق هوية مزعومة سبق للذات أن ثارت عليها ودفعت ثمناً فكرياً باهظاً من أجل تجاوزها وتقويض حصونها المنيعة والمتراصة.

وما نتحدث عنه ليس حلماً يتوجب الكفاح من أجل تجسيده بل أنه ما فتئ يتجسد من خلال الكثير من الإسهامات، فعن العلاقة الموجودة بين الفلسفة والسيميوطيقا، على سبيل المثال، يقول أمبرتو ايكو ECO «ولكن حتى دون [وجود] رغبة فى إرجاع فلسفة كاملة إلى سيميوطيقا، يكفى أن نقدر مجموع التقليد الخاص بفلسفة اللغة، فهو لا يختصر (كما هو الحال عليها الآن) إلى تأمل أو تفكير ما بين المنطق الشكلى، ومنطق اللغات الطبيعية، السيمنطيقا المركبة والبرغماتية، فقط من وجهة نظر اللغات، والسيمنطيقا المركبة والبرغماتية، فقط من وجهة نظر اللغات اللفظية. ففلسفة اللغة -

---

(١) برتراند رسل - تاريخ الفلسفة الغربية - الكتاب الأول/الفلسفة القديمة - ترجمة الدكتور/ زكى نجيب محمود - راجعه المرحوم الدكتور/ أحمد أمين - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ط٢ - سنة١٩٦٧ - ص٨٥.

(٢) تساؤلات الفكر المعاصر : مرجع سابق ذكره - ص ٣٠ - ٣١.

من الرواقيين إلى كاسيرر، ومن فلاسفة القرون الوسطى إلى فيكو، ومن القديس أوغسطين إلى فتغنشتين - تناولت كل أنساق العلامات، وبهذا المعنى فقط. طرحت تساؤلا هو فى العمق سيميوطيقى»(١).

ونلاحظ أن هذه التعددية فى التخصصات تأخذ أبعاداً أكثر بروزاً وإثارة خلال السنوات الأخيرة فالعلماء من أصحاب التخصص الواحدى **«لا يمثلون اليوم سوى أقلية من بين المجددين الكبار. فالغالبية تتشكل من مخترقى** Transgresser **حدود التخصصات»**(٢). لأن التجديد والإبداع كثيرا ما يكون من طرف باحثين لهم القدرة على تجاوز حواجز التخصصات وإكراهاتها، ليجعلوا إسهاماتهم تدخل فى خانة ما يسمى بالهامش الإبداعى Lamarginlité Créatrice. لذلك فانه و**«بتهميشهم فى مجالهم "الرسمى" يمكن أن يوجد مجددون يكونون أكثر شهرة فى الميدان الذى يتبناهم أكثر من ذلك الذى انبثقوا منه»**(٣).

إن الانفتاح الذى نتحدث عنه يفرض نفسه انطلاقا من كون أن مختلف التخصصات لا تصل إلى ما تود تحقيقه إلا بعد أن تهيم فى دوامة من الممكنات واللايقين المزمن، وقد يحدث أن لا تصل أبداً إلى ما تصبو إليه، فمن الممكن جداً وفى أى لحظة من زمن البحث والترقب أن ينفتح هوس جديد ومغاير وتنسحب معظم عناصر ما كنا ننتظر أن ينجلى فلا يبقى لفرضيات بأكملها كان يظن أنها حائزة على الكثير من الدقة والعلمية سوى وجود باهت فى تاريخ الأفكار السريعة «التلف» ويبقى وبالرغم من كل ذلك من ينتظر لحظات للميلاد المنتظر كما يجرى الآن فى اختصاص السيميوطيقا، حيث تسود قناعة بأن: **«تاريخ الدرس السيميولوچى يشبه فى الوقت الراهن جرة ماء ممزوج بالتراب، وقد حركناه بقوة وننتظر السكون وهدوء التراب الذى يترسب فى قعر الجرة، وقد انفصل عن الماء الذى يعتمه.. إذن لم يحن الوقت الآن**

---

(١) EMBERTO ECO : Sémiotique et philosophie du langage Ed: P.U.F. Paris 1988 P.10

(٢) Mattei Dogan / Robert Pathre : L'innovation dans les sciences sociales : la marginalité créative ED: P.U.F I^ére Edition Mai 1991 Paris. P:237.

(٣) Ibid. P:230.

لاستخلاص النتائج، ويمكن بعد بضع عقود أن يفصل الماء عن التراب، وسنرى اذاك النتائج بجلاء»[1]. أجل ربما قد يحدث ذلك وقد يسهم فيه أفراد من غير الاختصاص **«فهناك مستويات متعددة من التجديد تبدأ من الشرح الإحصائى للبقايا إلى تركيب كتلة هامة من الأعمال. فكلما انتقلنا نحو [الدرجة] العليا من هذا السلم [الخاص] بالتجديد، كلما كان لنا الحظ فى أن نعثر على أعمال تتشكل على الهامش من اختصاص ما، فى تقاطع مع [اختصاصات] أخرى»**[2].

فاستمرارية الممكن، وطموحنا فى أن يتحقق فى سياق ما لم نفكر فيه، يبقى مرتبطا بالانفتاح الذى نمارسه على تخوم الاختصاصات والفروع المعرفية المتعددة، ففى بحثنا الطبيعى عن الحقائق ننتج دون وعى منا حقائق للإمكان وأخرى قابلة للتحقق ولو إلى حين فالبحث عن شىء يحمل نوعاً من الثبات والاستقرار كان دائماً حلما يسعى الكائن إلى بلوغه وهى الفكرة التى عبر عنها برتراند رسل بقوله: **«إن مذهب التغيير الدائم، كما بشر به هيرقليطس، يبعث الأسى، وليس فى وسع العلم (..) أن يفنده، وإن من بين الغايات الرئيسية التى يطمح إليها الفلاسفة، أن يحيوا الآمال التى يظهر أن العلم قد قضى عليها، ولهذا جاهد الفلاسفة جهادا لا يفتر، فى البحث عن شىء لا يخضع لحكم "الزمن"»**[3]. ويبدو أن التصريح الذى يسجله هنا «راسل» لا ينطبق فقط على الفلاسفة ولكنه فى اعتقادنا أكثر التصاقا بالإنسان مهما كان الاختصاص الذى يزاول بحثه فيه، فلن يمارس أى كائن نوعاً من التفكير إذا لم تخترقه قناعة ما فى لحظة بعينها مضمونها أن ما يريد التعبير عنه يمكن أن يتضمن نوعاً من الحقيقة لأفراد معينين ولو للحظة قصيرة من الزمن.

وهكذا فإن عملية الاستفادة من المناهج المتعددة من طرف مختلف الاختصاصات والعلوم ما زال يتأكد فى سياق الوعى المعرفى المعاصر ذلك **«أن التاريخ القريب للتبادلات العلمية يظهر بطبيعة الحال أن [النزعة] الحمائية Protectionnuisme الصارمة**

---

(١) برنار توسان : ما هى السيميولوچيا - ترجمة وتقديم : نظيف - إفريقيا الشرق - ط١ - ص١٩٩٤ - المغرب.

(٢) Marei Doigan / Robert Pathre: op, cit. P31.

(٣) برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية - مرجع سبق ذكره - ص٨٩.

للمؤسسات الجماعية المتخصصة لم يمنع [حدوث] هجرات متواصلة للمناهج من اختصاص إلى آخر. بل أن تلك [الهجرات] تسارعت وانتشرت عبر مسارات طويلة منذ نصف قرن»[١].

ذلك أننا الآن فى مواجهة «منطق كونفدرالى» وانتشار واسع «للمقايضة المنهجية» ما بين الاختصاصات كما يؤكد ذلك باسيرون J.C.Passeron ومع ذلك يبقى تبادل المعارف يحافظ على نوع من التميز بالنسبة لكل الاختصاصات ولو على مستوى الأسلوب وربما كذلك على مستوى شكل من أشكال البديهات القائلة «**أن طبيعة الموضوع تحدد نوعية المنهج**» فالتحليل الفلسفى على سبيل المثال«**لا يكون بصدد الظواهر فى حد ذاتها، مثل التحليل الكيميائى، ولكن حول طريقتنا فى تمثل الظواهر. وحتى ندرس نسقنا المفاهيمى، نتوجه نحو أشكال التعبير الخاصة بفكرنا**»[٢].

إن الباحث فى مجال الفلسفة قد يجد نفسه بصدد التفكير فى ظواهر مرتبطة باللسانيات وعلم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ، كما يمكن أن نلاحظ أن «**الإثنوغرافى والمؤرخ، والسوسيولوجى، يصبحون فى بعض نقاط عملهم فلاسفة أو [لنقل] أنهم يتوجهون نحو الفلسفة**»[٣]. وبذلك نجد أن الفكر الإنسانى قد واجه منذ القديم إشكالية التحديد والتصنيف المنبثقة لديه من نزعة «النمذجة» التى تسعى إلى أن تضع عالم الأفكار فى خانات محددة لعزل «الأصيل» عن «الدخيل»، العلمى عن غير العلمى، والفلسفى عن غير الفلسفى والمتخصص عن غير المتخصص أو «الدجال» الذى يجب محاربته حتى لا يعكّر «صفاء» المعرفة فى إطار حركتها المتناغمة والانسيابية نحو هدفها «المنشود»!

يقول كلود لوفور LeFort «**فلسفة، لا فلسفة** Non Philosophie؟ **أى حدود نرسمها؟ لست أنا الأول، بالتأكيد، من سأل نفسه عن ذلك. لكن كان يبدو لى من غير الكافى أن أجيب أنه قد تكون هناك فلسفة أكثر فى كتاب للتاريخ، فى مؤلف سياسى،**

---

(١) Jean Claude Passeron : Le Débat (revue) - Mai / août No 90 Ed: Gallimard P.106.

(٢) Enteretien avec Vincent Descombes : Le débat (revue) Ibid. P.73.

(٣) Ibid. P. 76.

فى رواية أو [قصيدة] شعرية مثلما هو موجود فى عمل يحمل ذلك الاسم. إن الإجابة تترك فى الظل ما يتوجب إضاءته [أى] ماذا يجب أن نفهم من [قولنا] فلسفة؟»[1].

فهل تشترط الفلسفة لكى تكون متناغمة مع تاريخها الزاخر بالإسهامات والإبداعات المتعددة أن نضع حدوداً تبرز مجال عملها النظرى؟ أم أنها لا يمكنها أن تحدد ذلك المجال إلا من خلال إطلالتها على عالم العلوم والمعرفة الشاسع؟!!

يحاول الطاهر وعزيز أن يرشدنا إلى نوع من الانفتاح القريب من الإجابة بقوله: **«لقد تكونت الفلسفة فى عملية نشاط روحى وفكرى لا ينفصل فيه النثر والشعر والأسطورة والدين والعلم ومتطلبات الحياة والعمل، وتشكل مجموعها وحدة متكاملة. فلما انفصلت الفلسفة عن هذه الميادين بقى الفيلسوف حياً فى هؤلاء الذين انفصل عنهم كما تبقى فيه شىء منهم»**[2].

وحينما ندعى أن الاختصاصات المتعددة من فلسفة وعلوم إنسانية لا يمكنها إلا أن تلتقى من أجل أن تعيد دوماً صياغة منطلقاتها النظرية ومقارنة نتائجها وتحاليلها وفق ما توصل إليه كل فرع فى علاقته بباقى الفروع. فإننا نكون حائزين على شىء من الوعى أنه من أجل الوصول إلى فعل الكتابة بوصفها أكثر التجسيدات الإبداعية التصاقا بعالم الأفكار والمفاهيم، فإننا ننساق، بدون قدرة منا على تأكيد أى نوع من المشروطية، إلى الاستئناس بما ينجز فى مجال يمكننا أن نتقاطع معه،وكلما كان تقاطعنا إبداعياً وكثيفاً كلما كان إسهامنا أكثر جدة وأكثر قدرة على إثارة فعل التفكير لدى من يشاركنا نفس الهاجس أو لنقل نفس الهوس، إنه نوع من التواصل الخفى واللامرئى يبقى دوما حاضراً طالما بقى للفكر إمكانية للتجلى حتى يأخذ حيزه كفعل مقابل للتمثل.

ولا نكاد ننسحب من «بهو» الفلسفة، فى إطار حديثنا عن تداخل المعارف وتقاطعها، إلا لنعود إليها، لأن التساؤل عن معنى الفلسفة ربما يبقى الشىء الوحيد الذى تشترك فيه الفلسفة مع باقى الفروع المعرفية يقول لوفور Le Fort مرة أخرى « **لقد تساءلت بنفسى إذا لم يكن الفيلسوف، خلال فترة جد طويلة، مسكوناً، و[بشكل]**

---

(١) Claude le Fort " Ecrire : AI'epreuve du politique Ed: Calman - Levy Paris 1992. P. 350.

(٢) الطاهر وعزيز : المناهج الفلسفية - المركز الثقافى العربى · بيروت - الدار البيضاء - ط١ - ص١٥٥.

دائم، بشبح الفكر النقى. فى تلاؤم مرتبط بنفس التطلع، كما هو الحال فى ممارسته فالفيلسوف كان دائم الارتباط بعمل [خاص] بالتعبير، وبإنتاج أثر Oeuvre أين يبحث الفكر عن نفسه من خلال الكتابة، التى تتجلى وتبدع فى نفس الوقت، بالشكل الذى لم [تنكشف] فيه أبداً شفافية الفكر لذاته، وهذا المعنى المجرد لم يكن يقدم تقريراً حول [طبيعة] عمله، فكنت استنتج أن هذا البحث، وهذا السؤال:«"ما هو التفكير؟" وبالدرجة التى كان مرتبطا بها بسؤال الكتابة يصير باستمرار دائم [شيئاً] خاصا بالفلسفة، فى زماننا هذا»(١).

فالعلاقة بين الفلسفة والكتابة علاقة لا تنفصل وصياغة الخطاب الفلسفى لا يبدو أنه قابل للتحقق خارج نطاقها « **فأن نكتب - كما يقول دولوز عن فوكو - معناه أن نصارع ونقاوم أن نكتب معناه أن نصير، أن نكتب معناه أن نرسم الخرائط لتنفتح دروب نصنع بها أكثر من حقيقة تخلصنا من مركب المعرفة والسلطة، ففى قلب كل سلطة عصيان وفى قلب كل استبداد حريات عنيدة جموحة ترجع فرديا للجميع ولا تمارس بالنيابة وفى كل معرفة شمولية، تنبئية واعدة بالخلاص، تتسامق معارف قطاعية تصعق التجانس والاستمرار والوحدة المزعومة وتحفر هوات سحيقة ما عادت تنفع معها وحدة اللوغوس وسيادة الذات وامتلاء الوعى واتصالية التاريخ»**(٢).

ويبقى الفكر أكثر عمقاً كلما كان أكثر قدرة على توثيق وشائج الصلة مع ذاته، ليتحسس نتوءاته وخانات قوته وضعفه، ويحارب نرجسيته، ويزيح قناعاته التى تدافع عن نفسها بسرعة تتجاوز ما يستغرقه فعل تشكلها. ومن ثم فان جديد الفكر وإبداعيته يمر عبر محاولات الإزاحة والتجاوز أكثر مما يتم عبر خلق شىء جديد، فلا إمكانية لانبثاق المغاير فى كنف هيمنة العتيق والمتكلس، إن «**بطولة الفكر، وشجاعة الفلسفة تتمثل فى الارتفاع فوق التقليدية الكليانية** Totalitaires **، التى تدعى التهام وامتصاص حتى الذات الشخصية لتأخذ كفكر أصيل فكراً وهمياً غير شخصى وغوغائى»**(٣).

---

(١) C. LEFORT op, Cit. P352.

(٢) عبدالعزيز العيادى - مجلة العرب والفكر العالمى - مقال : المعرفة والسلطة عند فوكو من خلال "إرادة المعرفة" - مرجع سبق ذكره - ص ١١٠.

(٣) Joseph Vialatous : I'intention philosophique Eb P.U.F. Paris - Huitième édition 1969 P. 98.

لأن الفكر يصبو دائماً إلى أن يظل شريداً وغريباً تنقطع به السبل ولا يكاد يعثر على مستقر أو ملجأ حتى يعود إلى حال النكبة والفاقة ليطرد عن نفسه شبح الوثوق واليقين، وهى الحالة التى حينما تتجسد فى ذاتية الفيلسوف فإنها تدفعه إلى الهجرة المتواصلة ما بين المعرفة واللامعرفة، لأن ما يشكل الفيلسوف كما يؤكد ذلك ميرلوبونتى هى تلك «**الحركة التى تعيدنا باستمرار وبدون توقف من المعرفة إلى الجهل، ومن الجهل إلى المعرفة، إنه شكل من الراحة فى [داخل] الحركة...**»(١).

وبذلك فإن الفلسفة - كما يشير ليفينا E.levians فى موضع آخر - ليست إلا أولئك «**... الفلاسفة فى سياق "مغامرتهم" الذاتية - الداخلية التى لا يفك [عقدتها] أى شخص وأين لا يسمح لأى شخص أن يتقلص اهتمامه أو أن ينقص انضباطه**»(٢).

إن الكتابة ستظل هى الوحيدة التى بإمكانها أن تبقينا على حافة المعرفة لأنها تطمح لأن تربط جسراً يقلص من انعزالية العلوم والمعارف والأفكار الهائمة خلف تطلعاتها المجردة والمبهمة فكل «**... كتابة حية هى توافق بين حالتين حيث تكون الأولى متجاوزة، أما الثانية فتبقى باستمرار نظرية** Théorique»(٣). وبالتالى فهناك دائماً مسافة داخل العلوم والفلسفة علينا أن نقطعها لتضييق الهوة ما بين الممكن والمتحقق. ولكنها مسافة لن نتمكن من إلغائها، فهى التى تجعل الممكن ممكنا ومن ثم هدفاً يتوجب الوصول إلى ملامسته والاستمتاع بقدرته الهائلة على الانفلات . لأن شرط المعرفة الأساسى وربما الوحيد هو أن لا تسيَّج أو تحاط بالاكراهات. ذلك أن «**البحث العلمى أو الفلسفى ليس مسألة [جموح] رغبة فردية، لأن القانون والعقل هما بشكل دقيق [الشىء] الضرورى والكونى. غير أن ذلك الضرورى وهذا الكونى لا يتجليان لدى الفرد إلا بداخله هو، أى بشرط أن يتمكن هو نفسه، من أن يكون معفى من كل إكراه،**

---

(١) M. Merleau - Ponty : Eloge de Philosophie EdGallimard - Paris 1960 P.11.

(٢) Emmanuel Levinas Entre nous - Essais sur le penser - á - l'autre Ed. Bernard Grasset Paris 1991 - 1995 P.106.

(٣) Robert Escarprit : L'écrit et la communication - que sais je? Ed Bouchène alger 1993 p.18.

وأن ينتمى إلى ذاته. وتبعاً لذلك فإن الثقافة العلمية والفلسفية لا يمكنهما أن يتطورا خلال الفترات التى يكون فيها وعى الفرد مختزلا من أجل أن يكون صدى للوعى الجماعى»[1].

فالبحث على العموم ومهما كان مجال الاختصاص الذى ينخرط فيه ينطلق من إمكانية تمثلنا المتواصل والمتعدد لكل أشكال التمظهر التى تحيط بعالم المعرفة بأسلوب يحاول أن يمسك ما هو قابل للإمساك أى ما هو عقلى وهو ما يؤكده هايرمارس حينما يشير **«أن هناك مستويات يمكن العثور فيها عما هو عقلى، هما الأشخاص والتعبيرات الرمزية. ذلك أن العقلنة لا ترتبط بعملية امتلاك معرفة ما ولكنها تتوقف على الطريقة التى يعبر بها الأشخاص القادرون على الكلام والفعل عن هذه المعرفة. العقلية إذن تتمثل فى الأسلوب المتبع لاكتساب أو استعمال المعرفة من طرف شخص ما، وفى الطريقة التى تصاغ بها التعبيرات الرمزية»**[2].

لكنه أسلوب بالمعنى المعاصر للكلمة وفى السياق الذى يحيل إليه «رولان بارت»، انه نوع من العقلنة التى يتم التعبير عنها بواسطة الكتابة ومن ثم فهى ليست **«لهجة فردية شخصية (مثلما كان الأسلوب القديم)، وإنما هى عملية إصدار للأقوال** énonciation **(لا قول) تلعب الذات انشطارها عبرها بالتشتت، بإلقاء نفسها وشاحاً على مشهد الصفحة البيضاء»**[3]. . . مشهد الممكن وما لم يتم التفكير فيه، ذلك الذى يظل مسجلا فى سلم أولويات البحث المستقبلى سواء بالنسبة لخطاب الفلسفة أو لمجموع العلوم والمعارف فى تكاملها وتداخلها وانفتاحها اللامحدود، فى انتظار لحظات تصبح فيها المعرفة أقل غربة عن ذاتها وأكثر ملامسة لرهاناتها وأقل جهلا بإمكانات الأفكار على التعبير عن الشىء الوحيد الذى يمكن أن يبرز خلف كل تلك المتغيرات بين عباب العلوم والمعارف المتلاطمة كالأمواج. هو شىء قد يكون ممكن التحديد وقد يكون فقط انفتاحاً من بين الانفتاحات المطردة للمعرفة على مجاهيلها اللامتناهية.

---

(١) HAMELIN : Le Système du Savoir - Textes Choisis.

(٢) محمد نور الدين أفاية : الحداثة والتواصل فى الفلسفة النقدية المعاصرة - نموذج هابرماس - إفريقيا الشرق- ط١ - سنة ١٩٩١ - المغرب - ص ٢٢٠.

(٣) حوار مع رولان بارت : مجلة بيت الحكمة - العدد السابع - السنة الثانية - فبراير ١٩٨٨ - المغرب.

٢ - تكامل المعارف وانفتاح الممكن :

إن الخطاب الفلسفى وبعيدا عن اختصاص فلسفة اللغة وإشكالياته التقليدية، تربطه فى الوقت الحالى روابط قوية بالدراسات اللغوية، حيث نلاحظ أنه استفاد إلى حد بعيد من الجهاز النظرى والمفاهيمى الخاص بالحقل اللغوى واللسانيات المعاصرة. وقد كانت الاستفادة ذات بعد معرفى ابستيمولوچى من دون الانخراط فى التفاصيل التقنية المرتبطة باللسانيات المعاصرة. وذلك بخلاف الانطباع الذى كان سائداً عند أوائل اللسانيين فيما يخص علاقة اللسانيات بالفلسفة، والذى عبر عنه سابير Sapir بقوله: **«إن الدراسة النقدية للغة يمكن بالتأكيد أن تقدم للفلاسفة مساعدة فى منتهى الغرابة وغير متوقعة إلى أبعد الحدود. فقليل من الفلاسفة تكرَّم بفحص [التركيبة] المرفولوچية للغات البدائية واكتفوا بإلقاء نظرة سطحية وسريعة حول الخصائص التركيبية للغتهم الخاصة. فعندما نكون مكلفين باكتشاف سر الكون، فإن مثل تلك الأبحاث تبدو تافهة:**

ولكن وفى مقابل ذلك، حينما يتجلى أن بعض تلك الحلول على الأقل والخاصة بهذا السر الكبير تختصر إلى [مجرد] استخدامات مركبة بشكل فردى لقواعد النحو اللاتينى أو الألمانى أو الإنجليزى، فإن تفاهة التحليل اللسانى تكون أقل بداهة»[١].

لقد شكل البحث اللسانى المنطلق النظرى والوعاء المفاهيمى للكثير من الفلسفات المعاصرة، ليس فقط بالنسبة للفلسفة التحليلية "وفلسفة اللسانيات" ولكن حتى بالنسبة للاتجاهات الفلسفية الأوروبية المعاصرة، مثلما هو عليه الشأن بالنسبة للكثير من الفلاسفة مثل بول ريكور وجاك دريدا، هذا الأخير الذى ورغم انتقاده للبنية الفونولوچية للسانيات السوسورية أثناء محاولته التنظير لعلم الكتابة، إلا أنه مدين من دون شك بالشيء الكثير لتلك اللسانيات فيما يخص الجهاز المفاهيمى الذى يؤطر الشكل العام لفلسفته.

لا شك ان استفادة الخطاب الفلسفى من اللسانيات لم يكن دائماً وفق الشروط التقنية الصارمة وربما الغامضة - غموضاً غير مبرر أحياناً - التى وضعتها اللسانيات من

---

(١) Edward Sapir : Linguistique - traduction : Jean - Elie Boltanski et Nicole Soulé susbielles - Ed. Minuit - Paris 1968 P.126.

خلال إسهامات مدارسها المتعددة، وهذا ما دفع جورج موناك Monin إلى القول«**لم يعد من الممكن الحديث فلسفياً عن اللغة بدون معلومات صلبة فى اللسانيات، بل يجب القول: ثقافة صلبة فى اللسانيات. فأقل شيء يمكن أن نتمناه من الفيلسوف هو أنه حينما يحيل إلى مذاهب أو مفاهيم لسانية. فإنه يجب أن تكون المذاهب مفهومة بشكل دقيق والمفاهيم مستعملة بشكل صحيح. وهذا ما لا يحدث غالبا...**»(١).

ويصل هذا «التشدد» اللسانى بالكاتب إلى القول: «**إن الفيلسوف يشتغل دائماً أو تقريباً دائماً حول وقائع تم إعدادها من طرف الآخرين. وهو مدعو بقوة [منطق] الأشياء و[بشكل] دائم تقريبا. إلى العمل حول تجريدات. وتجريدات [خاصة] بتجريدات أخرى - على الأقل حينما يفكر فى إسهامات العلوم - والحال أنه يمكننا أن نشك فى إمكانية الاستعمال الصحيح للمفاهيم المجردة التى بلورتها العلوم. بالنظر إلى المستوى الذى بلغه الكثير منها خلال القرن العشرين، دون أن يكون [المستعمل] قد مارس بنفسه العمليات التجريدية التى تسمح بالانتقال من الواقع إلى التجريدات العملية التى تمتلكها تلك المفاهيم..**»(٢). فالكاتب واعتماداً على ما سبق، يبدو وأنه يريد أن يكون «حارسا» لأروقة «الفهم الصحيح» و «المعرفة الدقيقة» وينطلق من موقف «حمائى» للمعرفة العلمية واللسانية يهدف إلى المحافظة على خصوصية وامتياز حقول معرفية ظلت إلى فترة قصيرة تترنح وتفتخر بالمكاسب النظرية التى حققتها ويسوؤها أن ترى أعز ما تملكه من مفاهيم وهو يختزل ويتشظى داخل صروح فلسفية أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها لا تجلُّ كثيرا ما تستعمله من أدوات إجرائية بل وتستعملها فى أغلب الأحيان بكثير من «التساهل» يقلق كثيرا «أولياء» تلك الأدوات والمفاهيم.

لكن الخصائص العامة للتفكير الفلسفى تجعله غير قادر على تعظيم أى إسهام نظرى مهما جل شأنه، كما أن الفلسفة لم تكن عملية بالمعنى المعاصر لكلمة علم ولن تكون كذلك فى المستقبل، وليس من مهام الفلاسفة أن يكونوا رواد مخابر أو تقنيين فى التجربة، لأن التقنية الوحيدة التى يحسنون التعامل معها هى تقنية المفهوم. ويمكن القول أن الفلسفة هى أقل حمائية من كل الفروع المعرفية الأخرى وصدرها يتسع لكل

---

(١) Georges Mounin : Linguistique et philosophique et Ed: P.U.F ler édition - Paris - 1975 - P.6.

(٢) Ibid. PP,: 8-9.

الانتقادات، كما أنها لا تطبق أبدا مبدأ المعاملة بالمثل وهى لا تتهم غيرها كما تُتَّهم هى فى معظم الأحيان بالتقصير وسوء الفهم وعدم القدرة على بلورة منهجية دقيقة لدراسة المواضيع التى تتناولها إنها تلتزم بسلوك معرفى فى غاية الرقى والجلال يمكن أن نسميه **«بحكمة التسامح التى تنحصر فى قبول أنه ليس هناك كلمة أخيرة ولا وجود للغة مشتركة بشكل [كامل] وكلى..»**[١]. وهكذا فالفلسفة لا تشهِّر أبداً بالفروع المعرفية التى خرجت من رحمها حينما تسمح لنفسها أن تخوض فى الفلسفة. وعموماً فان **«اللغات ليست أدوات لاكتشاف الحقيقة. فهى تتصرف، بالنسبة للأفراد والمجتمعات، كمنابع جاهزة للتعبير. فاللغات يمكنها إذن أن [تلجأ] كثيرا إلى الكذب، لذلك فهى تطلب فقط أن تحترم بعض قواعد البناء التى لا يمكن أن تكون أبداً الانعكاس الدقيق لنظام العالم فى كل مرحلة من مراحل اكتشافه»**[٢]. ومن ثم فإن الدرس المعرفى للسانيات يجعلها أكثر تسامحا وأقل إغراقاً فى التقنية والتفاصيل، ومن ثم أكثر وعياً بالطابع الشمولى والتعددى للظاهرة اللغوية، **«لذلك فإن اللسانيات ومن [خلال] إبرازها للكيفية التى يتموقع من خلالها موضوع اللسان بالنسبة للعالم والمجال** Territoire **المنطقى، تعلمنا شيئاً هاماً عن الإنسان: وبنائها للأنساق اللسانية للتمثيل، فإنها تنتج معنى، وانطلاقاً من هذا الأخير تحدث وسيلة للتبادل . لأن إنتاج المعنى، حتى عندما يبدو مجانياً بشكل كامل أو يكون [خاصا] باستعمال داخلى محض أو علاجى، فإنه موجه، فى عمق غايته، نحو العلاقة الحوارية»**[٣]. ففى سياق تكامل المعارف الذى يطبع المعرفة المعاصرة، لا يمكن أن يستغرق غير المختص فى تفاصيل موضوع هو غير مطالب بالغوص فى أدق جزئياته. لأن الخطاب الفلسفى، فى علاقته باللغة وبفروع معرفية أخرى، لا يتعامل مع المعطيات التى تتوفر لديه، كخطوط مستقيمة، أو "طريق سريع" وممتد. بل يفضل تمثلها كتضاريس وجغرافيا غنية بالتلال والمرتفعات

---

(١) Olivier Abel: ce que le pardon vient faire dans l'histoire - Rev: Esprit Juillet 1993. P.66.

(٢) Calude Hagége : L'homme de Paroles - contribution linguistique aux sciences humaines Ed: FAYARD - Paris DEC : 1985. PP.:145-146.

(٣) Ibid :.P.: 153.

والمنحدرات والسهول، فمن خلال ذلك التنوع اللامتناهى ينبثق الفكر الفلسفى، وهو حامل لكل «اختلافاته» و «تناقضاته» الداخلية من أجل الوصول إلى بلورة نسق قائم بذاته.

وما لمسناه فيما يخص العلاقة الموجودة ما بين اللسانيات والفلسفة يمكن أن نلمسه فى سياق علاقة أخرى قريبة هى تلك التى تربط فى الوقت الحالى ما بين السيميوطيقا والفلسفة، فالأولى تشبه الثانية فى أن كلاهما تبلورا واتسع مجال وحقل تداولهما دون أن يكون ذلك مصحوباً بوضوح المفهوم الأصلى، بل أنه كلما اتسع مجال التداول واغتنى كلما غمض المفهوم الأصلى. يقول أمبرتو ايكو ECO «**حينما نعبُر بشكل غير منظم وتقريبى، الحقل السيميوطيقى، يجب التساؤل عما إذا كان بإمكان كل هذه المقاربات وكل هذه المشاكل أن تنخرط فى نفس الإجراء. هل يمكن لنفس المنهج الذى نوظفه لدراسة اللغات الطبيعية، أن يستعمل لدراسة مختلف الثقافات والعلامات الإيقونية؟ وهل هناك سبب جوهرى يدفع الكثير من الباحثين إلى فحص ظواهر فى غاية الاختلاف من زاوية التواصل؟(...)**»[1]. وبدل أن نكون فى مواجهة سيميوطيقا بصيغة الواحد فإننا فى مجال الفلسفة فى تقاطع مع جملة من السيميوطيقات، بعضها يمكُنه أن يغنى الحقل الفلسفى أما البعض الآخر فلا يبدو أنه قادر على بلورة علاقة تبادلية مع الفلسفة. ويمكن القول أن الخطاب الفلسفى بوصفه خطاباً نظرياً لا يمكنه أن يستفيد إلا من البعد النظرى للسيميوطيقا، لأنه لا يستَصيغُ أن تكون الفلسفة ذات بعد تواصلى فى الأساس، كما أنه لا يمكن أن يعتبر اللغة مجرد وسيلة تواصل، فالتأمل والتفكير والتعبير هى عناصر تتجاوز فى أهميتها أى شكل من أشكال التواصل. لذلك فإن التعريف الذى يقدمه «شومسكى» للغة حينما يقول: «**أظن أن اللغة، هى أولاً وقبل كل شىء، وسيلة للإبداع والتعبير الفكرى، بأعم معانى الكلمة..**»[2]، هو أكثر ملاءمة لخصائص الخطاب الفلسفى من كل التعاريف التى تركز على البعد التواصلى للغة. لأن

---

(١) UMBERTO ECO : Lastructure absente : Introduction á la recherche sémiotique - traduit de l'italien - Ed. Mercure de France paris . 1972. P.19-20.

(٢) نعام شومسكى - مجلة بيت الحكمة للترجمة - العدد السادس.

«دراسة اللغة هو مثال ممتاز للالتقاء والتعاون ما بين العلم والفلسفة»[1]. وكذلك بين الفلسفة وكل الاختصاصات الجديدة كالسيميوطيقا، والتكامل بين المعارف لا يعنى إضعافاً للعناصر الخاصة بكل فرع معرفى على حدة إذ من الضرورى أن لا تتحول كالعملية التعاون إلى نوع من الهيمنة تحت أى شعار كان، كالعلمية والدقة.. وما إلى ذلك من الشعارات التى تخفى توجهاتها النظرية والتأملية أو الفلسفية غير المعلنة.

فإذا كان الخطاب الفلسفى هو خطاب المفاهيم فإن الخطاب السيميوطيقى هو خطاب العلامات، و**«مع أن السيميوطيقا - بوصفها علما - تبلورت فى القرن العشرين حيث تشكلت مفرداتها وان لم تستقر، وتحددت مناهجها وان لم تكتمل، وأصبحت حقلا معرفياً وان كان غير مهيمن (...) إلا أن التأملات فى العلامة قديمة قدم الحياة..»**[2]. لأن الإنسان يقوم بوظيفتين أساسيتين ومتقاربتين: التفكير بواسطة المفاهيم والانطلاق بعيدا عن عالمه الداخلى بواسطة العلامات.

إن الفلسفة فى علاقاتها بباقى الاختصاصات تود أن تجعل من عملية استفادتها وتفاعلها معها نقطة جذب دائم، حتى لا ينعزل الفعل الفلسفى ويتقلص إلى مجرد تأمل ذاتى، فإذا **«كانت الفلسفة أكثر من مجرد تعبير مفاهيمى لمختلف النظرات حول العالم، وإذا، كانت خارج خاصيتها الإيديولوجية، تقوم كذلك بعض الحقائق الأساسية المرتبطة بعلاقات الإنسان بباقى البشر، وبعلاقات البشر بالكون، فان هذه الحقائق يجب أن تتواجد فى أساس العلوم الإنسانية ذاتها وخاصة فى مناهجها»**[3]. ومع ذلك فالتعبير المفاهيمى ليس مجرد نظرات حول العالم، إنه أساس التفكير الفلسفى وهو الذى يسهم فى بلورة الخطاب الفلسفى وإعطائه دلالاته المعرفية، وهذه الشمولية والكلية التى تميز التعبير المفاهيمى لا تنطبق على الفلسفة أو الحقل اللغوى فقط بل حتى على العلوم، **«فهل شمولية العلوم مختلفة إلى حد بعيد عن**

---

(١) Georges Kalinowki : Sémiotique et philosophie: éditions Hadès - Benjamins Paris - Ameserdam - 1985 - P.11.

(٢) سيراقاسم - نصر حامد أبو زيد - مدخل إلى السيميوطيقا - الجزء الأول - منشورات عيون - الدار البيضاء - المغرب - ط٢ / ٨٦ - ص١٤.

(٣) Lucien Goldman Science Humain et Philosophie - suivi du structuralisme génétique et création littéraire. Ed: Gonthier Paris. 1966 . P.17.

شمولية Universalité كل لغة؟ إن كل واحدة منهما شمولية، بشرط أن نتعلمها. وبما أن الخطاب والإمكانات العلمية لهما فاعلية رائعة - على الأقل حينما يتعلق الأمر بإنتاج تنظيم أو إخضاع - فقد تم فرضهما أو فرضا أنفسهما فى كل مكان من الكوكب»[1].

إن العلوم لا يمكنها أن تتخلى عن الفلسفة فى بلورة نظرياتها ومفاهيمها والعلماء يمارسون نوعاً من الفلسفة الضمنية فى عمليات التحليل التى تعقب إنجاز نظرياتهم، لأنهم حينما يتنقلون من مرحلة التجارب المخبرية إلى مرحلة الصياغة العلمية لتلك التجارب.

فإنهم يمارسون شكلا من أشكال التفلسف الذى يسميه ألتوسير بفلسفة العلماء العفوية، حيث يقول فى هذا السياق: «**يعترف الاختصاصيون فى مختلف المواد عفويا أثناء ممارستهم العلمية بحضور الفلسفة والعلاقة المميزة بين الفلسفة والعلوم، وهذا الاعترف هو عموماً اعتراف غير واع يمكن له أن يصبح واعياً جزئياً فى بعض الأحيان، ولكن يبقى كامنا فى الأشكال الخاصة للاعتراف اللاواعى وهذه الأشكال تكون "الفلسفة العفوية للعلميين" (Scienfibiques) أو "للعلماء"**»[2]، لأن التخصصات وان وجدت لتستجيب لضرورات إجرائية ومنهجية على مستوى عملية ممارسة البحث العلمى، فإنها غير واضحة المعالم فى ذهن الباحث أو العالم أو الفيلسوف وحتى الأديب، فلا يمكن لأى واحد منهم أن يضع حدوداً مصطنعة لمختلف الخبرات والتجارب والمعطيات التى حصل عليها خلال مسيرة حياته، أثناء قيامه بممارسة نشاطه. المخبرى أو الفكرى، فكل «**تخطيط للبحث يفترض وجود فكرة فلسفية مسبقة. فمن خلال توجيهه من طرف فلسفة تجريبية بشكل دقيق، فإن نشاط البحث هو بالضرورة محدود فى [سياق] عملية تجميع المعطيات وبلورة القوانين الفينومينولوچية المتعلقة بتلك المعطيات، دون تفسير عميق**»[3]. ومع ذلك فإن عدم وجود حدود فاصلة بين

---

(١) Gerard Fourez : La construction des sciences - la logique des inventions scientifiques - Ed. de Bovk université bruxelles 3ème édition 1996. P. 125. op, cit. P.125.

(٢) لوى ألتوسر : الفلسفة وفلسفة العلماء العضوية - ترجمة وتقديم رضا الزوارى - منشورات عيون - الدار البيضاء - المغرب- ط٢ - ١٩٨٩ - ص٨٤.

(٣) Mario Bunge : Philosophie de la physique - coll. Science ouverte - traduit de l'anglais par Francaise Balibar Ed. de Servil Paris 1975. P.29.

مختلف الفروع المعرفية والعلمية لا يعنى إطلاقاً وجود تداخل فيما بينها فالمميزات الخاصة بكل فرع تبقى واضحة المعالم فى ذهن كل مبدع حتى حينما لا يكون ملتزماً بها التزاماً كلياً، فلا يمكن على سبيل المثال أن نعتبر الفلسفة علماً حتى وان كانت تحتوى على نوع من المعرفة المفاهيمية التى نجد لها حضورا فى بعض الاختصاصات العلمية وحتى إذا كان المقصود من مصطلح "العلمية" ذلك النموذج الذى توفره العلوم الصورية مثل المنطق والرياضيات، ويصل ألتوسير فى هذا الصدد إلى القول: «.. **إن المسائل الفلسفية ليست هى المسائل العلمية. فالفلسفة التقليدية تستطيع أن تعطى أجوبة على أسئلة تطرحها هى، لكنها لا تعطى حلولا لمسائل علمية أو غيرها بنفس المعنى الذى يعطيه العلماء لحل مسائلهم العلمية، وهذا يعنى أن الفلسفة لا تحل المسائل العلمية فى مكان العلوم. فالتساؤلات الفلسفية ليست المسائل العلمية، فهنا لا بد أن نأخذ موقفاً داخل الفلسفة: الفلسفة ليست علما أو بالأحرى ليست العلم كما أنها ليست علم أزمات العلم ولا علم الكل**»[1]. كما أنه يصعب على الفلسفة أن تختزل مهمتها فى إرجاع المكونات الكلية إلى عناصرها الأولية والجزئية عبر تحليل صورى للأسس اللغوية لتلك المكونات.

غير أنه وبعيدا عن التحديدات التقنية الخاصة والمميزة "لهوية" كل اختصاص معرفى فإن الفلسفة تبقى - حسب اعتقادنا - هى الاختصاص الأكثر قدرة على الدخول فى حوار نظرى مع كل فرع على حدة بل أنه يملك كثير من الأحيان حتى القدرة على المشاغبة و"التشويش" وهو ما يجعل الفروع الأخرى تنتقد الفلسفة بل وتذهب أحياناً إلى القول بضرورة اختفائها من على مسرح المعرفة الإنسانية. وبالرغم من كل ذلك فإن «**الخطاب الفلسفى يدعى تفسير شروط إمكانية كل الخطابات. بالفعل لأن موضوعه ليس فقط تأسيس [خطابه] الخاص، ولكن التأسيس الخطابى بشكل عام. نعم من المؤكد أن العمل الأدبى يبنى أيضاً شروط مشروعيته الخاصة باقتراحه لعالم من المعانى، لكنه يفعل ذلك بطريقة غير مباشرة. والفلسفة بدل أن تفعل ذلك**

(١) لوى ألتوسر : المرجع نفسه - ص٣٩.

بشكل مجازى Figurative أو خيالى Fictionnelle، فإنها [تمارس] عملها فى شكل مفاهيمى ومقولاتى Catégorielle»[١].

وتمارس الفلسفة مهام التأسيس باستعمال كل الأدوات المفاهيمية والمنهجية المتوفرة على مستوى الساحة المعرفية لعصرها من النقد الأدبى إلى التحليل اللسانى وصولا إلى ملامسة الصياغة النظرية للعلوم، وهى تفعل ذلك فى سياق من الانفتاح المعرفى والإبداعى وليس من منظور تلفيقى يعمل على توليف المعطيات بشكل فوضوى وهجين بل أن كل ما تقوم به الفلسفة يجب أن يكون غنياً بالمعانى ما دام أن معنى الفلسفة يتحدد فى الأساس انطلاقا من شكل تعبيرها. وكل ذلك يمكن أن تمثله انطلاقا من أفق ما هو ممكن، لأن الخطاب الفلسفى لا يستطيع أن يستشعر ذاته خارج ممكناته لأن **«الممكن هو نوع من الملكة Faculté . فالإنسان ينظر : ينجز مشاريع ونظريات. وماهى النظرية، إذا لم تكن وبكل دقة، استعمال الممكن ؟...»**[٢]. كما أن الممكن هو الذى يمكن الخطاب الفلسفى من التقاطع مع معطيات ومفاهيم تنتمى لمجالات مغايرة فى سياق يجعله يحافظ على انسجامه واستقلاليته الداخلية فالفلسفة **«... لا تستطيع تحقيق استقلاليتها إلا بالانفلات من الزمن، ثم الانفلات لأجل ذلك من الواقع لصالح الإمكانية»**[٣]، لأنها تنشد فى ماهيتها الائتلاف والتعاضد والوحدة «الكونفدرالية»، لكنها لا تقبل إطلاقاً السيطرة والاحتواء، لأن الممكن لا يمكن أن يتماشى مع التسلط والانغلاق.

---

(١) Frédéric COSSUTTA : ENCYCLOPEDIE philosophique universelle : Le Discours philosophique : volume dirige par jean François Matèr Ed. PUF) Pqris) I^{ère} édition - Nov. 1998 - P. 1798.

(٢) Paul Valery : variété III Ed: Gallimard - 56ème édition Paris - 1936. P: 210

(٣) Richard Rorty : Essais sur Heidegger et autres écrits - traduits de l'anglais par jean - pierre cometti Ed: P.U. F. Ier édition février. 1995. P. 85.